حاجي توما وجريج في «يوم آخر» يطرحان سؤال الحرب على الحاضر

هناك سِيَر الأم والابن والمدينة لكن أيضاً سيرة المُشاهد

من اليمين: جوانا حاجي توما وخليل جريج

بعد سبعة أعوام على إنجازهما فيلمهما الروائي الطويل الأول «البيت الزهر»، حقّق المخرجان اللبنانيان جوانا حاجي توما وخليل جريج فيلماً روائياً ثانياً بعنوان «يوم آخر» (تمثيل: جوليا قصّار وزياد سعد وألكسندرا قهوجي)، الذي شارك في عدد من المهرجانات العربية والدولية (فاز بجوائز عدّة من بعضها)، ويُعرض حالياً في بيروت.

هنا حوار مع حاجي توما وجريج.

سلّط المخرجان جوانا حاجي توما وخليل جريج، في «يوم آخر»، ضوءاً إنسانياً وفنياً بديعاً على أحد أسئلة الحرب اللبنانية التي لا تزال معلّقة في فراغ السلم المنقوص: سؤال المفقودين والمخطوفين. هذه المرّة أيضاً، وكما في «البيت الزهر»، لم يعد المخرجان حاجي توما وجريج إلى أعوام الحرب بشكل مباشر، بل اختارا يوماً واحداً من أيام السلم الأهلي الهشّ، كي يرويا تفاصيل قاسية عن الحياة اليومية للّبنانيين، من خلال قصة أم (قصّار) وابنها (سعد) اللذين يواجهان تحدّياً خطراً: إعلان موت الزوج / الأب المفقود منذ خمسة عشر عاماً. لكن «يوم آخر» لا يسرد هذه الحكاية بشكل خطابي ومباشر. ذلك أن كاميرا حاجي توما وجريج تخترق الذات الإنسانية، وتفاصيل العلاقة القائمة بين الأهل وأبنائهم، ويوميات البؤس المزروع في اليومي والحياتي والإنساني لمجتمع محاصر بألف همّ وأزمة.

حالة فقدان

لا شكّ في أن «يوم آخر» سردٌ بصري جميل لحالة الفقدان: فالأم فقدت زوجها (وبمعنى آخر، حياتها)، والابن يكاد يفقد حياته كلّها بسبب تعنّت الأم ورفضها ممارسة الحداد، وبسبب انهيار علاقته بحبيبته (قهوجي)، ومَدينة فقدت روحها وحيويتها، على الرغم من مظاهر الحياة، ليلاً ونهاراً: «حين يبدأ المرء كتابة نصّ ما، لا يعرف إلى أين يُمكنه الوصول»، كما قالت جوانا حاجي توما في حوارها مع «السفير»، مضيفة أنها وخليل جريج اشتغلا «على فكرة أولى، استمديناها من مشاعرنا الخاصة إزاء الحياة اليومية التي نعيشها، ومن وقائع هذه الحياة التي تمرّ على أصدقاء لنا: صعوبة أن يعيش المرءُ الحاضرَ الخاص به. هناك ماض ثقيل يريد هذا المرء أن يخرج منه، وفي الوقت نفسه، هناك مستقبل غير واضح وحاضر يشبه الهستيريا. كأنك تتحرّك وتعيد تحرّكك مرات ومرات، من دون أن تتقدّم خطوة واحدة إلى الأمام». أما خليل جريج، فقال إن كل لبناني، تقريباً، لديه قريب أو صديق مفقود. أو إنه يعرف أحداً لديه مفقود أو مخطوف. «المفقود / المخطوف» هو أيضاً سؤال عن الحاضر وليس عن الماضي. فـ«هو» لا يزال مفقوداً. خُطف خالي في العام ١٩٨٥. أنا مقتنع أنه لم يعد حياً يُرزق». أضاف جريج: «من هنا، يُطرح سؤال الجسد: أين هي الأجساد؟ يجب أن تظهر الجثث. إن غياب الأجساد / الجثث يفتح موضوعاً آخر: الأشباح. إذاً، الجسد غير موجود، والحداد لم يتمّ».

ربمَا لهذا كلّه أعادت جوانا حاجي توما طرح سؤال آخر: «علاقتنا بالحرب وذكرياتها، وعلاقتنا بالماضي أيضاً. في كل مرّة ننجز فيها فيلماً جديداً، نسمع التعليق نفسه من كثيرين: «آه، إنه فيلم آخر عن الحرب». لا نتحدّث عن فترة الحرب، بل نشتغل دائماً على الحاضر. لكن المسألة أكبر من الفترة الزمنية: هناك أسئلة لا تزال حاضرة في الآنيّ، على الرغم من أنها مستلّة من الماضي». أما جريج فقال إن إحدى المشاكل التي واجهتهما معاً، تكمن في كيفية سرد قصّة في لبنان: «بعد «البيت الزهر»، واجهتنا هذه المشكلة. أي نوع من القصص نستطيع أن نكتب؟ هناك واقع يفضي إلى نتيجة. لكننا لم نكتب تاريخنا في لبنان بعد، والمشكلة الأساس تكمن في الذاكرة. لا أحد يريد البحث في الذاكرة أو العودة إلى التاريخ. لذا، فإن غياب تاريخنا يجعلنا نعجز عن كتابة قصّة وسردها. من هنا، عثرنا على طريقة أخرى، مرتبطة بالجسد، أو بنوع من الإحساس. لا نعطي صفة بل إحساس. لا نقول ما هي بيروت، أو ما هي الحرب، بل نسعى إلى منح المُشاهد إحساساً ما بكيفية عيش الواقع والعلاقة بالجسد وغيرها». وهذا ما أكّدته حاجي توما بقولها إن «لا تفسير في أفلامنا، بل رواية. نطرح أسئلة كثيرة، ونصنع أفلاماً مليئة بالأحاسيس. نحاول دفع المُشاهد إلى اكتشاف مشاعر وأحاسيس. كما أننا نتيح له فسحة كبيرة كي يضع نفسه فيها، ويتماهى أو يتشابه بما يجري فيها. نحب هذا النوع من الأفلام: أفلام الأحاسيس».

سِيَر متنوّعة

عن المدينة ونبضها والسِيَر الذاتية التي يتضمّنها «يوم آخر»، والمختصّة بالمدينة والأفراد والحكايات، أكّدت حاجي توما أن هناك سيراً عدّة في الفيلم: «أحببنا العمل على يوميات، والقصص الإنسانية تروى من خلال قصّة كبيرة واحدة». وأصرّ جريج على أنهما لا يستعملان صُوراً رمزية أو توريات: «هناك نوع من صورة عرضية تلتقط الواقع الخاص بنا. يمتلىء الفيلم بالأحداث التي تتلاءم ومشاعرنا. إنه قريب من حياتنا، لكنه مفتوح على آفاق مختلفة: أنت قلت لنا إنك وجدت في النهاية أملاً ما بتبدّل أحوال ونفسيات ومسارات. هناك من قال لنا إن النهاية نفسها هذه عكست إحباطاً. هذا جميل. كل واحد يتبنّى الفيلم، ويعيد ترميمه بأحاسيسه الخاصّة». أضافت حاجي توما: «في الفيلم، هناك أكثر من سيرة. هذا صحيح. سير الأم والابن والمدينة. لكن، هناك أيضاً سيرة المُشاهد. قمنا في جولة كبيرة منذ انتهائنا من إنجاز الفيلم: ثلاثون مهرجاناً. مئة لقاء. حوارات ونقاشات مع كثيرين مختلفي الأمزجة والحساسيات والوعي الثقافي والمعرفي. بعد هذا كلّه، أستطيع أن أقول لك إن كل مشاهد روى قصّته في الفيلم نفسه. بمعنى آخر: بدا لنا أن الفيلم قادرٌ على استيعاب قصص الناس كلّهم. هذا مهم».

من ناحية أخرى، تحدّث الثنائي حاجي توما وجريج عن «قصّة جيل» في فيلمهما الأخير هذا. قالت حاجي توما إن «يوم آخر» يتناول «جيلاً محدّداً هو الجيل الذي ينتمي إليه مالك (الابن). جيل تائه بين حنين إلى ماض أسطوري هو ماضي بيروت قبل الحرب، والشعور بالذنب الناجم عن فترة الحرب، والقلق من مستقبل غامض في منطقة غير مستقرّة سياسياً. جيل لا ينفكّ عن التساؤل كيف له أن يحبّ، أن يبني، أن يعيش في حاضره؟». أضاف جريج: «غالباً ما يعيش المرء الحاضر بطريقة حادة و«هستيرية» ومتكرّرة ليلاً. هذا الليل الذي يُكرّس اللحظة، فينسى المرء نفسه فيه ليضيع في الملاهي الليلية والحانات بحثاً عن جماعة ينتمي إليها. لعلّ هذا البحث هو ما يدفع الشخصيات إلى الخروج من منازلهم ما إن يسدل الليل ستاره. تتطوّر الأجساد بطريقة مختلفة وتتجسّد وتتحرّك في حدود قصوى تحلّلها الظلمة».

حاورهما: نديم جرجوره